

شعرية الألوان ودلالاتها في قصيدة أغنية الألوان لعز الدين ميهوبي
**The Poetics of Colors and Their Significance in the Poem the
Song of Colors by Izzedine Mihoubi**

* د/ نجوى منصور

Dr/ Nadjoua MANSOUR

جامعة أحمد بوقرة بومرداس - الجزائر -

Universty M'hamed BOUGARA boumerdes -Algeria-
n.mansour@univ-boumerdes.dz

تاريخ النشر: 2021/09/02

تاريخ القبول: 2021/05/05

تاريخ الإرسال: 2020/11/08

مَدْحُ الْجَمْرِ

يعالج هذا المقال شعرية الألوان ودلالاتها في قصيدة أغنية الحياة للشاعر الجزائري عز الدين ميهوبي، إذ اعتمد الشاعر في هذه القصيدة على الألوان بالدرجة الأولى، ليوظفها في التعبير عن كتلة من المشاعر المتداخلة في نفسية الطفل الصغير الذي جعله لسان القصيدة، وهذا ما قادنا إلى محاولة وضع اليد على خصوصية استعمال ميهوبي تحديدا للألوان من خلال هذا النص الذي يبدو لنا محتويا على مؤشرات جيدة للدراسة والتحليل. وهذا إضافة إلى اعتبارنا أن هذه الظاهرة (ظاهرة حضور الألوان في الشعر) تستحق الدراسة والتحليل، إذ يستعملها العديد من الشعراء في قصائدهم منذ العصر القديم إلى يومنا هذا.

الكلمات المفتاح: شعر، ألوان، شعرية، تخييل، رمز، دلالة.

Abstract :

This article deals with the poetics of colors and their different meanings in the poem "The Song of life" by the Algerian poet IzzedineMihoubi. The presence of colors in this poem is very important, and deserves to be studied and analyzed, in order to try to underline the peculiarity of Mihoubi's use of color specifically through this text, which seems to us to contain good indications for study and analysis. This is in addition to considering that this phenomenon (the phenomenon of the presence of colors in poetry) deserves to be studied and analyzed, because many poets use it in their poems from the ancient era to the present day.

Keywords:Poetry, colors, poetics, fiction, symbol, meaning.



* نجوى منصور: n.mansour@univ-boumerdes.dz

قال الشاعر عز الدين ميهوبي:

رقص الطفل وغنى ألف لون قد تمنى
أبيض مثل السحاب أحمر مثل الورود
أحضر مثل النبات تلك ألوان الحياة
فتح الشباك لاحت من وراء الغيم شمس
أي لون قد كساها كل لون فيه عرس
وعلى البحر تعالت رقصت حيننا ومالت
لونها الأحمر أضحى أصفر الألوان باهت
زرقة البحر تراءت في بياض الأفق وردة
تهدى في دلال مثل وشم زان خده
مثل عصفور شذا في السماوات غدا
يسأل الشمس محبة حاملا قوس قزح
ومواعيد فرح ويغني للحياة¹

مقدمة:

تعتبر الطبيعة مصدرا واسعا للجمال والإلهام، فهي الملاذ الذي يلجأ إليه كل من يبحث عن سحر الإبداع والتصوير والجمالية، ولا شك أن علاقة الإنسان بالطبيعة علاقة تعايش وتجاوز، ولما كان الشاعر إنسانا وفنانا يبحث في أسرار الكون، " كان الشعر هو المخرج له في بحثه عن التعالي والسمو عبر تخليص الذات من كل أنواع السيطرة، فهو مكان تجميع المتناقضات، وزمان تداخلها، حيث الحيرة والضيق، الحياة والموت، الألم واللذة، الغربة والفناء، تتراءى شفاقة كشهادة أبدية تتخطى العالم العياني، لتعيد تنظيمه من جديد وفق رؤيا تخدم الأشياء وتعيبها بعد أن ترسم في بؤرة الشاعر.²

ولم تكن القصيدة ببعيدة عن لوحة الفنان والرسام في التصوير والإبداع، بل حتى من حيث التأثير والانفعال، فالسر يكمن في طريقة الإبداع ودرجة التأثير، أما الاختلاف فيكمن في الوسيلة لا غير، أما الغاية المشتركة فهي تجسيد الأفكار والرؤية لكشف مواطن الجمال، فالشاعر والفنان كلاهما يريان ما لا يراه غيرهما، وهذا راجع بالدرجة الأولى لطبيعة المشاعر والأحاسيس، وهو ما يحمل عمل الناقد للصورة الفنية والشعرية لاكتشاف ما خلف الصورة من إيحاءات ورموز وظلال تختبئ خلف المستور لتنشطر منها

صور نفسية وعاطفية وعقلية، وبذلك يكون التوالد الدلالي للصور حسب درجة التأثير والتلقي، من هنا وجب على الفنان معرفة المثبرات التي من شأنها تحقيق الانفعال لإنجاح عملية التلقي، إذ نجد من بين المثبرات المشتركة في العمل الفني بين الشاعر والرسام "الألوان" وإن كانت معرفة الثاني بها أولى من الأول لما لها من فوائد جمّة في رسم الصورة ونقل الأحاسيس والعواطف.

لم تخل القصائد الشعرية، عبر مر العصور والحقب، من الألوان لما فيها من جمالية تكسو المعنى وروح المعنى بمسحة إبداعية خاصة تعبر عما يختلج في النفس من تقلبات فكرية وعاطفية ونفسية، تتركز على اللغة وتجعلها أساسا في حياكة النص الشعري، ولكن تبقى عبقرية الشاعر وفلسفته معيارا حقيقيا في جودة البناء والإبداع، ولنا في هذا البحث الموسوم بشعرية الألوان ودلالاتها في قصيدة أغنية الألوان لعز الدين ميهوبي وقفة سنحاول فيها استجلاء خصائص البناء اللوني في القصيدة وجماليته في تصوير المعنى لاكتشاف دلالاتها، وأبعادها الشعرية.

ولما كانت "الشعرية تأخذ مجالا حيويًا تتمثل في ذلك الاستعمالات المختلفة التي يشحن فيها المصطلح بدلالات حسية تخيلية من مثل هذا المشهد شاعري، أو ملامح تلك المرأة شاعرية، أو هذا اللباس شاعري... وكأن الشعرية في هذا السياق الاستعمالي تدل على موضوع جمالي وارف الظلال التخيلية، كثيف الطاقات الإيحائية من شأنه أن يفجر ينباع القول الشعري في أعماق الذات الشاعرة، وأن يثير إحساس المتلقي، ويطوف بخياله في عوالم مثالية حاملة..."³ ولا مجال أفضل من الشعر يأخذ المتلقي إلى عالم الخيال الحالم ليسافر به بعيدا عن الواقع.

1- فلسفة اللون:

إن الألوان في حياتنا حقيقة لا بد من منها، ولا يمكن لأحد إنكار فضائل هذه الحقيقة على الطبيعة والإنسان، إذ "يعدّ اللون من مكونات الإطار الطبيعي لحياتنا... وهو إحساس يؤثر في العين عن طريق الضوء، وهو ليس إحساسا ملونا، ولا حتى نتيجة لتحليل الضوء، بل هو إحساس مرسل إلى العقل عن طريق رؤية شيء ملون ومضيء."⁴ لهذا فدور اللون في حياتنا غير محدود لما له من "أثر بيولوجي واضح على الكائنات الحية، فالنبات على سبيل المثال يحتاج إلى اللون، فالأحمر يرحح الإيناع، والأزرق يرحح نمو الأوراق، في الوقت الذي يجعلها البرتقالي تطول أكثر..."⁵ لذلك لا يمكن أن نلغي الألوان من حياتنا، لأن الجمالية المحيطة بحياتنا ملونة بألوان الطبيعة، ولأنه لا يمكننا إلغاء اللون من حياتنا، فلا نستطيع إلغاءه من تفكيرنا أيضا.

وقد عرّف ابن منظور اللون فقال: "هيئة كالسوداء والحمرة ولونته فتلون، ولون كل شيء ما فصل بينه وبين غيره، والجمع ألوان، والألوان والضروب، واللون النوع، وفلان متلون أي لا يثبت على خلق واحد."⁶ كما عرّفه أحمد بن فارس بقوله: "واللام والواو والنون كلمة واحدة، وهي لون الشيء، كالحمرة والسوداء."⁷

أما اصطلاحاً، فتعريف اللون في الموسوعات الحديثة فيه تفصيل في ضوء تطور العلم، إذ نجد أنه "خاصية ضوئية تعتمد على طول الموجة، ويتوقف اللون الظاهري لجسم ما على طول موجة الضوء الذي يعكسه."⁸

ويرى عز الدين إسماعيل بأن الألوان هي "المظاهر الحسية التي تحدث توتراً في الأعصاب، وحركة في المشاعر، إنها مشيرات حسية يتفاوت تأثيرها في الناس"⁹ فكل إنسان يفضل بعض الألوان ولا يحب البعض الآخر، ورفضها وقبلوها يعود إلى أسباب متنوعة نفسية واجتماعية ودينية، فلكل لون تأثيره النفسي. ومن هنا نقول أن وظائف اللون تختلف من شخص لآخر، ومن حضارة لأخرى فالوظيفة الدلالية غير ثابتة ولكن تحكمها مؤثرات نفسية وفردية في بعض الأحيان لذلك اخترنا في هذا المقال أن ندرس الجمال اللوني في شعر عز الدين ميهوبي من خلال قصيدته "أغنية الألوان" ذلك أن الشعر هو ما يشهد على أثر صاحبه وصوره الزمنية والمكانية، وفلسفته الفكرية في رؤية الأشياء، والحياة من منظور معين.

تعتبر الألوان، من هنا، مادة أساسية لدى الشعراء لتشكيل لوحاتهم الشعرية الفنية، وإعطائها الحلة التي ترتديها، فالألوان عنصر مهم من عناصر التشكيل الأدبي، ويكتسي أهمية بالغة في رسم الصورة الشعرية وإضافتها جمالية تستقي نضرتها من عبق الطبيعة وألوانها البديعة، إذ "يبقى الشاعر قادراً على إعادة رسم الأشياء، وتكون الملامح المرسومة باللون الذي يشاء، فقد يلون الأشياء كالأشجار بالسواد أو غيره من الألوان، وهذا ما يغني اللغة لدى الشاعر، إذ يقدم اللون إيجاء ومعنى آخر غير الذي عرف عنه، فإذا غلب على البياض الصفاء، فإن البياض وفق سياق ما يصبح رمزاً للاستسلام أو المرض أو السوء... وهكذا يصير اللون لغة للشاعر..."¹⁰

من هنا نطرح التساؤلات التالية:

- كيف وظّف عز الدين ميهوبي الألوان في قصيدة أغنية الألوان؟

- ما هي دلالتها الرمزية في القصيدة؟

- كيف ساهمت الألوان في رسم الصورة الشعرية في قصيدة أغنية الألوان؟

2- شعرية العنوان:

يعتبر النقاد العنوان أولى عتبات النص نظرا للروابط الدلالية التي تربط العنوان بمضمون العمل الأدبي ومحتواه "فهو يؤدي دورا تفاعليا في العملية الإبداعية إذ يحرص المبدع على الدقة في اختياره لإدراكه حساسية ارتباطه بالنص، والأهمية التفاعلية بينهما."¹¹ فالعنوان هو العتبة الأولى التي ندخل من خلالها عالم النص، ومنه يمكن فتح باب الدلالات والتأويلات لمحاولة استنطاق كنه هذا النص.

والنص الناضج هو ذلك النص المشتمل على عنوان مشبع بمختلف المثبرات والمؤثرات التي من شأنها شد القارئ وجذبه نحو نصه لقراءته وإعادة إنتاج دلالاته، وبذلك تحقق العملية التفاعلية النجاح والمقصد، لأن قيمة النص تظهر في مدى تفاعل الجمهور معه قرائيا، والعنوان هو أول ما يشد القارئ للنص أو ينفّر منه لما يحمله من طاقة دلالية تحيط بالمتن من كل جانب، لذلك يمكننا اكتشاف دلالة العنوان قبل ولوج عالم النص، وبعدها قراءة الداخل واستنطاقه دلاليا، ومن ثمة يتجلى المعنى العام وتتكشف الروابط الدلالية والمضامين.

يتأسس عنوان القصيدة التي بين أيدينا ظاهريا من جملة اسمية مكونة من مبتدأ معرف بالإضافة وخبرها غير موجود، "والجملة الاسمية غالبا ما تحمل دلالات الإخبار والإثبات والاستمرارية،"¹² فقد اختار الشاعر هذه التركيبة "أغنية الألوان" وجعلها عتبة نصه ليهيئ القارئ لاستقبال طاقة مفعمة بالفرح والغبطة والسرور المستمرين في القصيدة، القصيدة نفسها التي نستطيع اعتبارها خيرا للمبتدأ، وكأننا بالكاتب يخبرنا كيف تكون أغنية الألوان في هذه القصيدة، وكيف لا والأعاني معادل موضوعي للفرح، فهو يريد إيصال دلالة ما تحمل في ثناياها مفارقة تركيبية ودلالية في الآن نفسه، فكأنما أراد أن يهيئ الأذن للتلقي والسماع والطرب قبل استمتاع العين باللوحة اللونية التي سيرسمها في قصيدته، فأقوى التأثيرات تكون عبر هذه الحاسة القوية (السمع)، نظرا للدور المهم الذي تلعبه حاسة السمع في الاستقبال والتلقي، وهو ما يكشفه القرءان الكريم على لسان أهل النار في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.¹³

ولم يرد في محكم التنزيل تقدم البصر على السمع مطلقا، فاعتماد الكاتب لهذا الترتيب لم يكن اعتباطيا، لذلك نجد أن عز الدين ميهوبي هيأ السمع أولا بدرجة عالية جدا حد الصخب، لأن الأغنية أكثر حدة وإسماعا من غيرها، ثم استحضّر بعدها البصر في الألوان التي استعملها في أبيات القصيدة،

فهذه التركيبة المرئية وسعت دائرة البصر، لأن استقبال الألوان يكون من خلال العين فيما يكون استقبال الأغاني من خلال الأذن، وبهذا البناء يضع الشاعر حاستين قويتين في الاستقبال: الأولى سمعية (أغنية) والثانية بصرية (الألوان)، ما يوحي بقيمة النص وثرائه الدلالي، أما من ناحية المعنى، فلعب الانحراف دورا أساسيا في التركيب، فأغنية الألوان تجسد التفاعل السمعي البصري الذي يحكم أجزاء النص ومكوناته الدلالية والتركيبية، فيصبح العنوان مقابلا لبنائه الداخلي وهو ما تجسده الحقول الدلالية للنص، كما في الجدول التالي:

حقل الأغاني	حقل الألوان
رقص	لون
غنى	أبيض
عرس	أحمر
رقصت	أخضر
مالت	ألوان
تعال	لون
رقصت	أحمر
تتهادى	أصفر
عصفور	الألوان
شدا	زرقة
فرح	بياض
يغني	قوس فرح

وبهذا ينكشف أن المعجم الدلالي للنص ارتبط ارتباطا وثيقا بعنوان القصيدة، فهو "بمد بجدوره في أعماق النص الذي يحي به، ويشكل مرجعيته، لذلك تقوم علاقة تكوينية بنائية بين النص والعنوان، أحدهما يكون الآخر ولا يحي من دونه،" ¹⁴ فبهذا البناء الأسلوبى للنص، تظهر شعرية العنوان في ذلك التلاحم السمعي البصري المهيمن على النص في حلة جمالية بديعة حققت الانفعال والتأثير، وساهمت في رسم الصورة الحسية والمعنى العام للنص.

3. دلالة الألوان:

حاول الشاعر عز الدين ميهوبي أن يرسم أحلام الطفولة البريئة في جو متناغم، تعلق فيه الألوان الزاهية، لتغدو الطبيعة بساطا مستويا يحتضن تلك الرؤية المخترلة في نفسية الطفل الذي يرى العالم كما هو، دون تعقيد أو مبالغة.

ولرسم هذه اللوحة وجب على الشاعر أن يمتلك وعيا كبيرا بنفسية الطفل، وعلاقته بالأشياء التي تحيط به، تمثل هذه القصيدة موقفا شعوريا عارضا اتكئ فيه الشاعر على الخيال فكان الانحراف الأسلوبى مهيمنا في إنتاج المعنى العام للقصيدة من حيث التراكيب والدلالة، فقد صور الشاعر الطفل يغني ويرقص، لتبدو معالم الفرح والسرور مهيمنة على أرجاء النص، أما الطفل فهو رمز للبراءة والنقاء والصفاء، وبهذا تجسد القصيدة صورة الإنسان الحالم الذي يدخل معترك الحياة محملا بآمال وأحلام ومحاور الطبيعة بجمالها الساحر، ليكون التواصل هنا افتراضيا، مما يعطي المشهد الشعري لمسة فنية تتماشى وعقلية الطفل في التواصل مع أشياء العالم المحيطة به، والمتتمثلة في الرغبة في التملك التي تسيطر على الطفل وتدفعه للاكتشاف والإدراك، من هنا تقوم العلاقة بينه وبين الألوان كما يصورها ميهوبي في هذا النص، "فقد ثبت أن اللون يخطف بصر الطفل في أيامه الأولى، فإنه يخاطب عينه، قبل أن ينادي لسانه وعقله،"¹⁵ واعين تدرك الأشياء قبل أن تدركها حواسه الأخرى.

من هنا، كانت للألوان الواردة في القصيدة دلالات إيجابية ونفسية، وسنحاول استجلاءها فيما يلي:

أ. اللون الأبيض:

يأتي اللون الأبيض في مقدمة الألوان شهرة وأكثرها انتشارا وتداولاً إذ "يدل على الإشعاع والانطلاق لما فيه من اجتماع الياء الدالة على الاتساع والضاد بما فيها من نفور وإفلات من المركز،"¹⁶ فقد كان منذ العصور القديمة مقدسا ومكرّسا لإله الرومان Jupiter يضحى له بحيوانات، كما "يمثل اللون الأبيض الفطرة الأولى للأشياء على وجه الأرض، فحقيقته تدل على معاني سامية أعلاها الطهر والصفاء والبراءة والحرية والسلام والاستقرار،"¹⁷ ما يجعل اللون الأبيض محمّل بالكثير من الدلالات الإيجابية.

وقد ورد اللون الأبيض في القرآن الكريم بلفظه الصريح عشر مرات، وذكر ضمنا في آية واحدة،¹⁸ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾¹⁹ وفي قوله

أيضا: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾²⁰ فقد ورد اللون الأبيض في القرآن الكريم حاملا دلالة القبول والطهارة، كما يرمز إلى الصفاء والنقاوة أو إلى الفوز في الآخرة نتيجة العمل الصالح في الدنيا،²¹ فالبياض إذا علامة دالة على الإيجابية في الحياة الدنيا والآخرة.

وقد ورد اللون الأبيض في قصيدة عز الدين ميهوبي مرتين، إحداها في قول الشاعر:

أبيض مثل السحاب أحمر مثل الورود

زرقة البحر تراءت في بياض الأفق وردة²²

من حيث الموقع، ورد اللون الأبيض في مقدمة الألوان المذكورة في القصيدة، وهو أول أمنيات الطفل الحالم، فقد تمنى ألف لون وأولها اللون الأبيض، حيث شبهه الشاعر ببياض السحاب، لأن السحاب هو أشد الأشياء بياضا وشفاءً، كما يحمل دلالة النماء والرزق والحياة والسرور، وقد ربط الشاعر اللون الأبيض بالسحاب موظفا التشبيه التمثيلي، وذلك ليوحى بارتباط دلالة اللون الأبيض بدلالة السحاب المتجسدة في الرزق والحياة والنماء، وهي أولى أمنيات الطفل الحالم، ومن جهة أخرى نرى أن ارتباط موقع اللون الأبيض بموقع المشبه به (السحاب) يوحي بمنزلة هذا اللون الأبيض بين الألوان وهي منزلة العلو والسمو، وهذا ما يحمل دلالة التفاؤل بالمستقبل وما تحمله الأيام والحياة.

ثم جاء استعمال هذا اللون (الأبيض) في البيت الثامن من القصيدة، محافظا على نفس الاتجاه الدلالي في توظيف اللون، فيقول الشاعر:

زرقة البحر تراءت في بياض الأفق وردة²³

يكون لون الأفق عادة أحمر، ويميل إلى البرتقالي عند الغروب (والبرتقالي يعتبر إحدى درجات اللون الأحمر)، إلا أن عز الدين ميهوبي جعل لون الأفق أبيضاً ليحمل دلالة الصفاء والنقاء والحلم، فالبعد الدلالي يكمن في تجسيد الحلم المنشود الذي يتطلع الطفل إليه وهو الغد الأجل المختبئ خلف الأفق، لذا حافظ الشاعر على موقع اللون الأبيض وهو العلو المتجسد في موقع الأفق البعيد. ما جعله يحمل دلالة الأمل المنشود، لأن الفجر ينبثق من الأفق وينفتق النهار من الليل فيخرج من كومة الظلام الحالك ضوء أبيض يعم أرجاء الأرض.

يحمل توظيف اللون الأبيض في القصيدة إذا تكاثفا دلاليا شكلا معنى الأمل والحلم والتفاؤل والبراءة، حيث كان أول الألوان ذكرا فيها، ولهذا التوظيف اللوني زحمة دلالي إيجابي، يجعل من القصيدة عالما مفعما بالطاقة.

ب - اللون الأحمر:

اللون الأحمر لون القوة والقدرة والحياة والحركة، وأما عاطفياً فيعتبر اللون الأحمر لون الحب الملتهب والتفاؤل والقوة والشباب،²⁴ وقد ورد في القرآن الكريم بلفظ صريح في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾²⁵ ثم أن اللون الأحمر من أكثر الألوان شداً للاتباه، فهو لون صارخ لا يمكن إخفاؤه.

إن اللون الأحمر إذا هو لون "الطاقة والحيوية، إذ يتميز الأشخاص الذين يفضلونه بالنشاط والحيوية والديناميكية والشجاعة وهم يهتمون بالجانب الحسي أكثر من اهتمامهم بالجانب المعنوي.²⁶ لهذا يكون حضوره في القصيدة مقترنا بالطاقة الإيجابية الوافرة التي تبعث على الحركة والحيوية. وقد ربط الشاعر هذا اللون بالورد في قوله: "أحمر مثل الورد،"²⁷ ومن المعروف أن للورد ألوان عدة مختلفة، لكن عز الدين ميهوبي، اختار اللون الأحمر ليربطه بالورد، في صيغة تشبيه صريح، وهو رمز الحب والتفاؤل والحنان، فمن رمزية المشبه به (الورد) أخذ المشبه دلالة الحب، لأن الطفل يحب الحياة ويعشقها، ويهتم فيها بالجانب الحسي الملموس، لأنه مازال لا يدرك بعد الفرق بين العالم الحسي والعالم المعنوي، فاللون الأحمر هنا جسّد فالعلاقة العاطفية المباشرة التي تجمع بين الطفل والحياة. أما من حيث الترتيب، فقد ورد اللون الأحمر في المرتبة الثانية، بعد اللون الأبيض، وهذا راجع لاقتران دلالتى اللونين، فالأبيض رمز التفاؤل والأحمر رمز الحب والحنان، وهو نفس الترتيب اللوني في الآية التي أشرنا إليها سابقاً.

ج - اللون الأخضر:

يعتبر اللون الأخضر "لون الحركة والسرور لأنه يهدئ النفس ويسرها وهو تعبير عن الحياة والخصب والنماء والأمل والسلام والتفاؤل."²⁸ فهو لون الطبيعة الحية والرزق، وهو "من أكثر الألوان في التراث الشعبي استقراراً في دلالاته، وهو من الألوان المحبوبة ذات الإيحاءات المبهجة، ويبدو أنه يستمد معانيه المحبوبة من ارتباطه بأشياء مبهجة في الطبيعة كالنبات وبعض الأحجار الكريمة،"²⁹ فهو يرمز للإخصاب والاحضرار والربيع، والعديد من المعاني الإيجابية المتعلقة عادة بالنماء.

وقد ورد اللون الأخضر كثيراً في القرآن الكريم، إذ نجده مثلاً في قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَعًا﴾³⁰ فقد جاء هنا لبيان جمال ملابس أهل الجنة.

وكما اقترن بالنبات للدلالة على جمال الكون ووارف الحياة، كما جاء في قوله تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾³¹ وفي آية أخرى اقترنت دلالة اللون الأخضر في القرآن الكريم بالطاقة في قوله تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾³² فالشجر يحترق ليصبح وقودا يستغله الإنسان في أمور عدة.

أما في قصيدة التي بين أيدينا، فنجد أن الشاعر ربط دلالة اللون الأخضر بالنبات مستعملا التشبيه التمثيلي في قوله: أخضر مثل النبات،³³ فهذا اللون يرمز للحياة، تلك الحياة التي يتمناها الطفل، حياة تملأها الحركة والخصوبة والنماء ليحيا فيها هو، ويحيا فيها غيره، لأن النبات مصدر الحياة الأول. أما دلالة الطاقة فهي متجسدة في الطفل، لأن الطفل يحمل طاقة كبيرة وحيوية ونشاط، وهذه الطاقة من شأنها أن تصنع له كل شيء يرغب فيه ويريده، "فاللون قوة صامتة تؤدي دلالات متناغمة، وعنصر مهمما في الكون، لا يمكن تصور الأشياء إذا فقدت هذه الميزة"³⁴ فكان اللون الأخضر من بين أمنيات الطفل الحالم، لما فيه من نضارة وخصب ونماء.

د- التحول اللوني:

أبدع عز الدين ميهوبي في بناء هذا النص وفق أسلوب في معتمد على خصائص وتراكيب الألوان، ذلك أن "اللون هو أحد الدوال اللغوية المنتجة للمعنى والشعرية، فيشكل بدلالته الخصبية جزء من البنية اللغوية والرؤيا الفكرية التي يحملها النص، مما يجعله يخضع لتعدد الدلالات وتجاوز المؤلف وفقا لتجربة الشاعر ورغباته النفسية."³⁵ والمتأمل للأبيات الأولى من هذه القصيدة يدرك أن الشاعر حصر الحياة في ثلاثة ألوان وهي (الأبيض، الأخضر، الأحمر)، ونجد هذا في قوله:

رقص الطفل و غنى ألف لون قد تمنى
أبيض مثل السحاب أحمر مثل الورود
أخضر مثل النبات تلك ألوان الحياة³⁶

وهذا نابع من دلالة هذه الألوان في حد ذاتها، فعز الدين ميهوبي لم يخرج في هذا التركيب عن المؤلف كما رأينا من خلال قراءتنا الدلالية لهذا التوظيف الأسلوبى، فهنا تنكشف رؤية الشاعر وفلسفته ونفسيته، لأن الألوان قبل أن تكون مؤشرا أسلوبيا، فهي مؤثر نفسي، ولكن لم يلبس حتى هدم هذا البناء وأعاد إنتاج المعنى من جديد لتتشكل صورة أخرى لاحت في الأفق البعيد، كما يظهر في قوله:

فتح الشباك لاحت من وراء الغيم شمس
أي لون قد كساها كل لون فيه عرس
وعلى البحر تعالت رقصت حيننا ومالت
لونها الأحمر أضحى أصفر الأنوار باهت³⁷

إن التحول اللوني سبقه تحول في الطبيعة أولاً، فقد تحول السحاب إلى غيوم، لتكتسي الصورة حلة ضبابية، وهنا تم الانتقال من اللون الأبيض (السحاب) نحو الأسود (الغيوم)، فتمت النقلة الدلالية، من اللذة نحو الألم، ثم نرى كذلك أن اللون الأحمر تحول إلى لون أصفر، فهذا اللون يحمل "دلالة الحزن والهجم والذبول والكسل والموت والغناء، فهو لون الخريف الذي يوحي بموت الطبيعة وجمالها"³⁸ وقد ورد في القرآن الكريم بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿انظُرْ إِلْتَأْتَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ۗ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَلَئِن أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾³⁹ كما يحمل دلالة متناقضة فهو "يعبر عن التوهج والإشراق والنشاط والسرور لأنه لون الضوء والشمس."⁴⁰ ونجد هذا في قوله تعالى ﴿قَالَ إِنَّهُ يُسْأَلُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْع لَوْئُهَا تَسْتُرُ النَّاطِرِينَ﴾⁴¹ في حين كان اللون الأحمر لون القوة والحب والحنان فهذا التغيير اللوني تبعه تغيير دلالي في المعنى ما يوحي بالتحول الذي عرفته حياة الطفل من البهجة والسرور إلى الحرقه والألم. فعز الدين ميهوبي عرض بطريقة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بطبيعة اللون ودلالته ليحسد المعنى الذي يصبو إليه لذلك لعبت الألوان دوراً مهماً في بناء شعرية النص من الناحية الدلالية والتركيبية.

كما أن الشاعر ربط اللون بمصدره الطبيعي (الشمس)، فهو لم يلجأ إلى اللون مباشرة كي لا يضعنا وجهاً لوجه أمامه، بل بعث فينا اللون من خلال الرمز الذي يدل عليه ثم يصرح به. فالشمس هي رمز للنور والأمل، ومصدر للضوء الذي يعم أرجاء الأرض ليحلي ظلام الليل الخالك. ومن غرائب الصور أن يفقد اللون طبيعته فيصبح خاضعاً لرغبة الشاعر، إذ من المعروف أن لون الشمس أصفر، ولكن عند عز الدين ميهوبي لونها أحمر، وعندما يتغير لونها يصبح أصفراً باهتاً، حيث جرد الشمس من لونها الطبيعي والأصلي، واستبدله بلون آخر، فهو بهذا الانزياح الأسلوبي شكل معنى دلالياً عميقاً ينبثق من دلالة اللون في حد ذاته، فالأحمر له دلالة إيجابية بينما الأصفر له دلالة سلبية، لكن مصدر هذا اللون له دلالة إيجابية (الشمس)، لذلك اختار الشاعر اللون الذي يتوافق دلالياً مع المصدر، ليعبر بذلك عن حالة الطفل كيف كانت؟ وكيف أصبحت؟ حسب المعنى الذي يريد الوصول إليه مستعملاً هذا التوظيف الأسلوبي.

كما أننا نجد نفس التركيب في قوله:

زرقة البحر تراءت في بياض الأفق وردة⁴²

فاللون الأزرق الذي "يعتبر لون السكينة والهدوء والصدقة والتفكير، فهو يخفف من حدة ثورة الغضب ويهدئ النفس ويرمز إلى الصدق والخلود والإخلاص،"⁴³ كما يدل أيضا على الغموض والعداوة والحزن، مثلما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾⁴⁴

فقد ربط الشاعر اللون الأزرق بالبحر، فهو رمز للغموض والغضب والشدة، كما يعتبر كذلك رمز للسكينة والهدوء والتفكير والجمال، فدلالة البحر متقبلة حسب الحالة التي يكون عليها، وإسناد اللون الأزرق إلى البحر دليل على اتحاد الدلالة، فشكلت صورة رمزية موحدة، رسمت لوحة طبيعية لكنها لم تلبث طويلا حتى تغيرت تماما حيث أصبحت زرقة البحر بياضا يلوح في الأفق مثل الورد، لنرى من خلال هذا التصوير أن الشاعر حوّل الأزرق إلى أبيض، ولم يقصد به اللون في حد ذاته بل دلالة اللون، فلو تتبعنا مثلا رمزية اللون الأزرق والتي هي الغموض والعداوة والحزن وخففنا منها تدريجيا كما يلي:

● كلما قل الشيء غموضا ازداد وضوحا.

● كلما تناقصت العداوة ازدادت المحبة.

● كلما تناقص الحزن ازداد الفرح.

هذه المعطيات الدلالية مسلمات في طبيعة اللون الأزرق، لأن شدة هذا اللون تنخفض تدريجيا حتى يصير أبيضاً، فتتغير دلالاته من السلب إلى الإيجاب، مغيرة النظرة الدونية للحياة (البحر) إلى نظرة تفاؤل وأمل متجسدة في الأفق البعيد (العلو). أي ما تحمله الأيام من سعادة وفرح بعد التعاسة والحزن. إن المعاني التي أنتجها الشاعر من خلال الألوان الموظفة هي التي حددت الاختلاف بينهما، لذلك لجأ الشعراء إلى تلوين الأشياء بغير ألوانها الحقيقية وهذا ما يعكس استخداما يحمل الإيحاء اللوني، إذ يحوي دلالات تضمينية والشاعر يعتمد إلى الدلالات العميقة للون أكثر من سرد دلالاته الشخصية.

هـ - التمازج اللوني:

إن الملاحظ للألوان التي استعملها الشاعر عز الدين ميهوبي في هذه القصيدة يرى من الوهلة الأولى أنه استعمل ألوانا موحدة التركيب (الأبيض، الأحمر، الأخضر، الأزرق، الأصفر) وكلها ألوان رئيسية، وبهذا التوظيف نرى أنه ابتعد عن الألوان الممزوجة (البرتقالي، البنفسجي، الوردية...) ودلالة هذا الاستعمال هو

الوضوح الذي يعيشه الشاعر في رؤيته للحياة، فكل شيء ظاهر أمامه لأن ثقافة الشاعر وتجربته أكسبته نظرة واضحة للأشياء ووقائع الحياة، فهو لا يعيش توترا ولا صراعا ولا اختلاطا للأمور، فكل لون يعبر عن نفسه على حدة متخذًا دلالة معينة تنبثق من اللون وتعبّر عن مدلوله.

ومع أن الشاعر لم يستعمل ألوانا ممزوجة ولم يصرح بها، إلا أنه استعمل لفظا دالا على التمازج اللوني ويظهر هذا في قوله:

يسأل الشمس محبة حاملا قوس قزح⁴⁵

فقوس قزح مشكل من مجموعة من الألوان، وهو مقوس الشكل، يظهر عندما تسطع الشمس على قطرات المطر، وهو ليس جسما ماديا بل هو ضوء يسهم في تكوينه عدد من قطرات المطر، فالظاهر أن السحب البيضاء والغيوم قد أمطرت ولاحت عليها أشعة الشمس بخيوطها الذهبية فخرج قوس قزح بألوانه الباهية والتي جمعت كل الألوان المذكورة في القصيدة إضافة إلى الألوان الأخرى التي تشكل قوس قزح.

فقد جاء قوس قزح رمزا للفرح والسرور بعد كتابة الطبيعة (رياح، جفاف...)، كما يعتبر أيضا رمزا للخير والنماء والاختضار، لأن قوس قزح تسبقه الأمطار، فصور الشاعر من خلاله حالة الطفل الذي تحبب في عثرات الحياة وضيقها وألمها وبؤسها وشقائها حاملا حلما جميلا هو أن يرى السعادة والراحة التي طالما انتظرها وترقبها في الأفق البعيد، إلى أن حملتها إليه أشعة الشمس بعد نزول المطر من السحاب الأبيض مع قوس قزح الذي مثل نهاية الرحلة الشاقة الذي خاض غمارها الطفل، والتي جاءت سعيدة فرسمت في الأرض والسماء ممتدة مع قوس قزح الجميل.

كما أننا نستشف دلالة أخرى من هذا التوظيف الأسلوبى تتمثل في تغير الحياة ونظرة الطفل إليها، فالألوان التي كانت رمزا للتعاسة في بداية القصيدة (الأصفر، الأزرق) أصبحت رمزا للحب والسعادة في نهاية القصيدة لأنها ظهرت في الأفق مع بقية ألوان قوس قزح، فالطفل أدرك ما كان يجهل من معاني الحياة وأشكالها، فهذا الإدراك جعل من تعاسته وألمه فرحا وسروا وبهجة، فالإنسان يتعلم من أخطائه، والشوك يخرج من الورد، والتعب يأتي بعد الراحة، ودواء السم من مصله، وهكذا تمضي الأيام... وهكذا هي نظرة الشاعر عز الدين ميهوبي للحياة.

خاتمة:

نصل في الأخير إلى القول إن الشاعر عز الدين ميهوبي قد لعب بالألوان لبناء قصيدته فكان الرمز هو العنصر البارز والمهيمن على النسيج الشعري للنص، ذلك أن الألوان عنده ليست مجسمات بل هي

صور تتحرك لتعبر بمدلولها عن فكرة يريد الشاعر إيصالها للمتلقي، لهذا فقد وظف الألوان لتكون وسيلة من أجل هذه الغاية.

وبهذا لم يكن عز الدين ميهوبي بعيدا عن الفنانين والرسميين في التعبير عن المحسوس بالمحسوس، حيث حمل الألوان دلالة رمزية أكسبت المعنى تكاثفا دلاليا عميقا، من خلال التلاعب بالألوان، وبتكبيها وتحويلها.

وأهم ما ميز الشاعر هو ربط الألوان بالحواس الأخرى خاصة حاسة السمع وحاسة الشم، وهذا ما وجدناه عند ربط اللون الأبيض بصورة السحاب والأحمر بالورد والأخضر بالنبات والأزرق بالبحر، وكل هذا جاء لتحقيق المعادل النفسي المتجسد في الراحة النفسية، فالإنسان يحب رائحة الورد وشكله، ويجب البحر ويشعر بالسعادة عند رؤية قوس قزح.

وتكمن شعرية هذا النص في الملمح الأسلوبي البارز المتجسد في طريقة الانتقال اللغوي المحكم من صورة إلى أخرى وكذلك التلاعب بالدلالة من خلال إعادة توظيف الرمز، فقد رأينا أن اللون الأزرق والأصفر كانا يرمزان للتعاسة والألم، فأصبحا يرمزان للسرور والأمل لأنهما من ألوان قوس قزح الذي لاح في الأفق في نهاية رحلة الطفل في آخر القصيدة، لذلك يرى أدونيس " أن ما يخلق الشعرية ليس تشبيه الزهرة بالجرح فحسب بل البنية اللغوية الكلية التي يتم فيها الانتقال من الزهرة إلى الجرح بالطريقة الواردة في العبارة.⁴⁶

إضافة إلى هذا التلاعب الأسلوبي، شكل الخيال دورا بارزا ومسرحا مهما تشكلت من خلاله الصور وسبحت في أرجائه أفكار النص "لأن عين الخيال هي التي ترسم فيها الصور الرمزية التي ينبغي أن نعبر عنها لإدراك الحقيقة المرموز إليها."⁴⁷

فالخيال هو بمثابة الرحم الذي تتكون فيه المعاني بصور مختلفة لتخلق أفكارا تعبر عن رؤية معينة لصاحبها، ومن هنا كان عنوان القصيدة "أغنية الألوان" معبرا عن مدلولها في بنيتها العميقة.

هوامش:

- 1- ميهوبي عز الدين: منافي الروح، ط1، دار ثالة، الجزائر، 2007، ص116.
- 2- علي آيتأوشان: السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، المغرب: دار الثقافة، ط1، 2000، ص133.

- 3- يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 01، 2008، ص 276.
- 4- الأخضر ميدني بن حويلي: الفيض الفني في سيميائية الألوان عند نزار قباني، مجلة دمشق، مجلد 21، عدد 3-4، 2005، ص 112.
- 5- محمد التونسي حكيب: إشكالية مقارنة النص الموازي وتعدد قراءته، عتبة العنوان نموذجاً، مجلة جامعة الأقصى، مؤتمر الأدب، مجلد: 09، عدد: 01، يونيو 2006، ص 572.
- 6- ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، دط، ص 4106.
- 7- أبو الحسن أحمد بن فارس: مقاييس اللغة، مج 5، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، دط، ص 223.
- 8- احمد عبد الله محمود حمدان: دلالة الألوان في شعر نزار قباني، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2008 ص 26.
- 9- عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر (قضاياها وظواهره الفنية)، دار العودة، لبنان، ط3، 2007، ص 129، 130.
- 10- ظاهر الزواهره: اللون ودلالته في الشعر، الشعر الأردني أنموذجاً، دار الحامد للنشر والتوزيع، الأردن، 2008، ص 236.
- 11- هدى الصحنائي: البنية السردية في الخطاب الشعري، قصيدة عذاب الحلاج للبياتي أنموذجاً، مجلة جامعة دمشق، م 29، ع 1، 2013، ص 390.
- 12- مكسح دليله: البيئة في الشعر الجزائري المعاصر، دار ابن زيد للطباعة والنشر، الجزائر، 2016، ص 56.
- 13- سورة الملك، الآية 10.
- 14- هدى الصحنائي، مرجع سابق، ص 392.
- 15- ينظر أحمد مختار عمر: اللغة واللون، مصر: عالم الكتب للنشر والتوزيع، ط2، 1997، ص 19.
- 16- دلالات الألوان في شعر نزار قباني، أحمد عبد الله حمدان، رسالة ماجستير، جامعة نابلس، فلسطين: 2008، ص 28.
- 17- أحمد مختار عمر: مرجع سابق، ص 221.
- 18- سامي يوسف أبوزيد وعبد الرؤوف زهدي مصطفى: دلالة اللون في آيات القرآن، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ع 13، مارس 2008، ص 203.
- 19- سورة آل عمران، الآية 107.
- 20- سورة النمل، الآية 12.

- 21- أحمد مختار عمر: مرجع سابق، ص 221.
- 22- ميهوبي عز الدين، مرجع سابق، ص 116.
- 23- عز الدين ميهوبي المرجع نفسه، ص 116.
- 24- أحمد عبد الله حمدان، مرجع سابق، ص 93.
- 25- سورة فاطر، الآية 27.
- 26- محمد محسن غام: سيكولوجية الملابس، المكتبة المصرية للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، د ط، 2004، ص 07.
- 27- عز الدين ميهوبي، مرجع سابق، ص 116.
- 28- ليلي قاسمي-مهدي ممتحن، الجمال اللوني في الشعر العربي من خلال التنوع الدلالي، مجلة دراسات الأدب المعاصر، ع9، 2006، ص 95.
- 29- أحمد مختار عمر: مرجع سابق، ص 210.
- 30- سورة الكهف، الآية 31.
- 31- سورة الأنعام، الآية 99.
- 32- سورة يسين، الآية 80.
- 33- ميهوبي عز الدين، مرجع سابق 116.
- 34- سليم كرام، الطبيعة في الشعر الحديث أحمد سحنون أمودجا، وزارة الثقافة، الجزائر، 2012، ص 179.
- 35- صديقة معمر، شعرية الألوان في النص الشعري الجزائري المعاصر فترة (1988، 2007) رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 2009 / 2010، ص 78.
- 36- ميهوبي عز الدين، مرجع سابق 116.
- 37- عز الدين ميهوبي، المرجع السابق، ص 116.
- 38- ليلي قاسمي، مهدي ممتحن، مرجع سابق، ص 98.
- 39- سورة الروم، الآية 50-51.
- 40- ليلي قاسمي، مهدي ممتحن، مرجع سابق، ص 98.
- 41- سورة البقرة، الآية 69.
- 42- ميهوبي عز الدين، مرجع سابق، ص 116.
- 43- ليلي قاسمي، مهدي ممتحن، مرجع سابق، ص 96.
- 44- سورة طه، الآية 102.
- 45- ميهوبي عز الدين: مرجع سابق، ص 116.
- 46- حسن ناظم، مفاهيم الشعرية، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط1، 1994، ص 132.

47- علي أحمد سعيد (أدونيس): الشعرية العربية، دار الألباب، بيروت، ط1، 1985، ص 70.